

التحرير والتنوير

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم ولكنهم تأولوه على أمر النذب وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية ولو قالوا المراد من قوله قرئ قراءة خاصة وهي أن يقرأه الرسول E على الناس لعلم ما فيه والعمل به للكافر والمسلم كان أحسن تأويلا . وفي تفسير القرطبي عن سعيد " ابن المسيب " : كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى فيقول بعضهم لبعض لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فأنزل الله تعالى جوابا لهم وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا .

وتلك مكية الآية لأن يستقيم لا الآية هذه نزول سبب محمل في الإخبار من تقدم ما أن على A E الحوادث حدثت في المدينة . أما استدلال أصحاب أبي حنيفة على ترك قراءة المأموم إذا كان الإمام مسرا بالقراءة فالآية بمعزل عنه إذ لا يتحقق في ذلك الترك معنى الإنصات . ويجب التنبيه إلى أن ليس في الآية صيغة من صيغ العموم لأن الذي فيها فعلا هما (قرئ) و (استمعوا) والفعل لا عموم له في الإثبات .

ومعنى الشرط المستفاد من (إذا) يقتضي إلا عموم الأحوال أو الأزمان دون القراءات . وعموم الأزمان أو الأحوال لا يستلزم عموم الأشخاص بخلاف العكس كما هو بين .

(واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين [203]) إقبال بالخطاب على النبي A فيما يختص به بعد أن أمر بما أمر بتبليغه من الآيات المتقدمة والمناسبة في هذا الانتقال إن أمر الناس باستماع القرآن يستلزم أمر الرسول E بقراءة القرآن عليهم قراءة جهرية يسمعونها فلما فزع الكلام من حظ الناس نحو قراءة الرسول E أقبل على الكلام في حظ الرسول A من القرآن وغيره وهو التذكر الخاص به فأمر بأن يذكر الله ﷻ ما استطاع وكيفما تسنى له وفي أوقات النهار المختلفة فجمله (واذكر ربك) معطوفة على الجمل السابقة من قوله (إن وليي الله) إلى هنا .

والنفس اسم للقوة التي بها الحياة فهي مرادفة الروح وتطلق على الذات المركبة من الجسد والروح ولكون مقر النفس في باطن الإنسان أطلقت على أمور باطن الإنسان من الإدراك والعقل كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى (تعلم ما في نفسي) وقد مضى في سورة المائدة ومن ذلك يتطرق إلى إطلاقها على خويصة المرء ومنه قوله في الحديث القدسي في صحيح البخاري " وإن ذكرني في نفسي ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم " فقابل قوله في نفسه بقوله في ملا .

والمعنى : اذكر ربك وأنت في خلوتك كما تذكره في مجامع الناس .

والذكر حقيقة في ذكر اللسان وهو المراد هنا ويعضده قوله (ودون الجهر من القول) وذلك يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيد الله وشكره ونحو ذلك مثل كلمة التوحيد والحوقة والتسبيح والتكبير والدعاء ونحو ذلك .

و (التضرع) التذلل ولما كان التذلل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب كني بالتضرع عن رفع الصوت مراداً به معناه الأصلي والكنائي ولذلك قبول بالخفية في قوله (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) في أوائل هذه السورة وقد تقدم .

وقبول التضرع هنا بالخيفة وهي اسم مصدر الخوف فهو من المصادر التي جاءت على صيغة الهيئة وليس المراد بها الهيئة مثل الشدة ولما كانت الخيفة انفعالا نفسيا يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعر بالمرء من يخافه فلذلك كني بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله فمقابلتها بالتضرع طباق في معني اللفظين الصريحين ومعنييهما الكنائين فكأنه قيل تضرعاً وإعلاناً وخيفة وإسراراً .

وقوله (ودون الجهر من القول) هو مقابل لكل من التضرع والخيفة وهو الذكر المتوسط بين الجهر والإسرار والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان لأن بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر .

والغدو اسم لزمان الصباح وهو النصف الأول من النهار .

والآمال جمع أصيل وهو العشي وهو النصف الثاني من النهار إلى الغروب